

الأخلاق، و [الآيات] الحاثات على الخلق العظيم<sup>(١)</sup>، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان **سَهْلًا** ليناً، قريباً من الناس، مجيئاً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأله، لا يجرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشرته، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال **سَهْلًا**.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: **«فستبصر ويصرون \* بأيكم المقون»** وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وأشر الناس]<sup>(٢)</sup> للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى يعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و **«هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين»** وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

**﴿٨ - ١٦﴾ «فلا تطع المكذبين \* ودوا لو تدهن فيدهنون \* ولا تطع كل حلاف مهين \* هزاز مشاء بنميم \* مناع للخير معتد أثيم \* عدل بعد ذلك زينيم \* بعد ذلك زينيم \* أن كان ذا مال وبنين \* إذا تنطى عليه آياتنا قال أساطير**

(٦) في ب: يظلمهم في دماثهم وأموالهم وأعراضهم.

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.



براءة نبيه محمد **سَهْلًا** مما نسب إليه أعداؤه من الجنون.. نفقى عنه الجنون<sup>(٣)</sup>، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: **«وإن لك لأجراً \* أي: عظيماً، كما يفيدته التنكير، «غير ممنون» أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي **سَهْلًا** من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: «وإنك لعلي خلق عظيم» أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرت به أم المؤمنين [عائشة - رضي الله عنها -] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: **«خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»** «فبما رحمة من الله لنت لهم» [الآية]، «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه **سَهْلًا** بمكارم**

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هامش ب.

فلولا استثنيتكم قللتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا: **«سبحان ربنا إنا كنا ظالمين»** أي: استذكروا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسيبهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، يتفهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة، **«فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون»** فيما أجروره وفعلوه، **«قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين»** أي:

متجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، **«عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون»** فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤلته.

قال تعالى مبيّناً<sup>(٤)</sup> ما وقع: **«كذلك العذاب»** [أي:] [الدينوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أخرج ما يكون إليه.

**«وللعذاب الآخرة أكبر»** من عذاب الدنيا **«لو كانوا يعلمون»** فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب<sup>(٥)</sup>.

**«٣٤ - ٤١»** **«إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم»** **«أنفجمل المسلمين كالمجرمين»** ما لكم كيف تحكمون \* **«أم لكم كتاب فيه تدرسون»** **«إن لكم فيه لما تخيرون»** **«أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون»** **«سلمهم أيم بذلك زعيم»** **«أم لهم شركاء فليأتوا بشركاتهم إن كانوا صادقين»** **«يغير تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي»** من أنواع

اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلقوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويأدرهم إليها.

**«فطاف عليها طائف من ربك»** أي: عذاب نزل عليها ليلاً **«وهم نائمون»** فأبداها وأتلفها **«فأصبحت كالصريم»** أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، وهذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: **«اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين»** **«فانطلقوا»** قاصدين له<sup>(٦)</sup> **«وهم يتخافتون»** فيما بينهم، ولكن يمنع حق الله، ويقولون: **«لا يدخلها اليوم عليكم مسكين»** أي: بكرروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. **«وغدوا»** في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة **«على حرث قادرين»** أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها، **«فلما رأوها»** على الوصف الذي

ذكر الله كالصريم، **«قالوا»** من الخيرة والانزعاج. **«إنا لضالون»** [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: **«بل نحن محرومون»** منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة، فـ **«قال أوسطهم»** أي: أعدلهم وأحسنهم طريقة: **«ألم أقل لكم لو لا تسيحون»** أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنة أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهي عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سيء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والظن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: **«أن كان ذا مال وبين»** \* إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين\* أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبا - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطوم<sup>(٧)</sup> في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

**«١٧ - ٣٣»** **«إنا بلوناهم كما ليصرونها مصبحين»** **«ولا يستنون»** **«فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون»** إلى آخر القصة يقول تعالى: **«إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتناهم، وأممدناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون»**<sup>(٨)</sup>، فاغترارهم بذلك نظير

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يتقل عليهم.

﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الشواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يُتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والانتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تحف بهم، فوقع القرعة عليه، فالتقمه الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إذ نادى وهو مكظوم﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾. فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ

يسجدون لله، طوعاً واختياراً، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرّون على السجود، وتكون ظهورهم كصيافي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ - ٥٢﴾ ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون \* وأملئ لهم إن كيدي متين \* أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون \* أم عندهم الغيب فهم يكتبون \* فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم \* لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم \* فاجتبه ربه فجعله من الصالحين \* وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون \* وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: دعني والتكذابين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، فـ ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ فتمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأزواق والأعمال، ليغترروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فرق كل مبلغ<sup>(٤)</sup>.

النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين<sup>(١)</sup> القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الشواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه<sup>(٢)</sup> فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتحيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سلبهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها<sup>(٣)</sup>.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون \* خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى البياري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيث يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أي: هلكت موتى﴾، ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ ﴿أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتكرر.

﴿٩- ١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ ﴿فعضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية﴾ ﴿إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية﴾ ﴿لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ ﴿أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيّنات، ما يتبينون بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلواً، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿والمؤتفكات﴾ ﴿أي: قري قوم لوط، الجميع جاؤوا بالخاطئة﴾ ﴿أي: بالفعل الطاغية، وهي (٧) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق، ﴿فعضوا رسول ربهم﴾ وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذّب (٩) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع ﴿أخذة رابية﴾ ﴿أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرقعة.

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحدوا الله واشكروا الذي نجاهم

خاوية \* فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كززه من قوله: ﴿الحاقة﴾ ما الحاقة \* وما أدراك ما الحاقة﴾ فإن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيماً، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] (٣)، ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤)

أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتروحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرغ الخلق بأهلها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العجل (٦): ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنتهم وجثثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ ﴿أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أي: عنت على خزائنا، على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح، ﴿سخرها﴾ عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ ﴿أي: نحساً وشرّاً فظيماً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فترى القوم فيها

بالعراء﴾ أي: لطح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وهو مذموم﴾ ولكن الله (١) تخمده برحمته، فنبت وهو مدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتبه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعله من الصالحين﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. ثم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

### تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١- ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحاقة﴾ ما الحاقة \* ما أدراك ما الحاقة \* كذبت ثمود وعاد بالقارعة \* فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية \* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية \* سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام قترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

(٧) في ب: هو.

(٨) في ب: المعاصي.

(٩) في ب: كذبوا.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.

(٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.

(٦) في ب: العاجل.

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أي:

يصيبوهم.

(٣) من هامش أ.

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرخ والسرور، ومحة أن يطلع الخلق على ما من الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما من الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿تطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهيق، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة<sup>(٣)</sup> - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإتابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه \* ولم أدر ما حسابيه \* يا ليتها كانت القاضية \* ما أغنى عني ماليه \* هلك عني سلطانيه \* خذوه فغلوه \* ثم

واضحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صافصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتبي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعمها، وكرب جسيم هائل أوهأها وأضعفها.

﴿والمملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم<sup>(١)</sup>، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاة عراة عرلاً، في أرض مستوية، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، فحيثذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه \* إني ظننت أني ملاق حسابيه \* فهو في عيشة راضية \* في جنة عالية \* قطوفها دانية \* كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعْطَرْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنوياً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيد، ولهذا قال: ﴿لنجملها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكرة﴾ تذكرة أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكر بأصله.

وقوله: ﴿وتعياها أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الأبواب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الاعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله<sup>(٢)</sup>.

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة \* وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة \* فيومئذ وقعت الواقعة \* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية \* والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية \* يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسوله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الآخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتنتت الجبال

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (وترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك... في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.



رب العالمين \* ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين \* وإنه لذكرة للمتقين \* وإنه لنعلم أن منكم مكذبين \* وإنه لحسرة على الكافرين \* وإنه لحق اليقين \* فسبح باسم ربك العظيم \* أقسم تعالي بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل<sup>(١)</sup> في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول

يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السب الذي أوصله إلى هذا المحل: **«إنه كان لا يؤمن بالله العظيم»** بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاؤوا به من الحق، **«ولا يحض على طعام المسكين»** أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمسكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها، دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، **«فليس له اليوم ها هنا»** أي: يوم القيامة **«حميم»** أي: قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله: **«ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له»** **«ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع»**.

وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتنن الريح، وقبح الطعم ومرارته لا يأكل هذا الطعام الذميمة **«إلا الخاطئون»** الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلوكوا سبل الجحيم<sup>(٥)</sup>، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

**﴿٣٨-٥٢﴾** **«فلا أقسم بما تبصرون \* وما لا تبصرون \* إنه لقول رسول كريم \* وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون \* ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون \* تنزيل من**

الجحيم صلوه \* ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه \* إنه كان لا يؤمن بالله العظيم \* ولا يحض على طعام المسكين \* فليس له اليوم ما هنا حميم \* ولا طعام إلا من غسلين \* لا يأكله إلا الخاطئون» هؤلاء أهل الشقاء، يُغَطُّون كتب أعمالهم السيئة<sup>(١)</sup> بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً، وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والخزي<sup>(٢)</sup>: **«يا ليتني لم أوت كتابي»** لأنه يبشّر بدخول النار، والخسارة الأبدية، **«ولم أفر ما حسابه»** أي: ليتني كنت نسياً منسياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: **«يا ليتها كانت القاضية»** أي: يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الاقتداء من عذاب الله<sup>(٣)</sup>، فيقول: **«ما أغنى عني مالي»** أي: ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

**«ملك عني سلطاني»** أي: ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة<sup>(٤)</sup>، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدرج الرياح، وفانت بسبب المتاجر والأرباح، وحضر بدلته الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد: **«خذوه فقلوه»** أي: اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، **«ثم الجحيم صلوه»** أي: قلبه على جرها ولهبها، **«ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً»** من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، **«فاسلكوه»** أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال

(١) في ب: كتبهم المشتعلة على أعمالهم السيئة.  
 (٢) في ب: الحزن.  
 (٣) في ب: ولا ينفعه لو اقتدى به من العذاب.  
 (٤) في ب: فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد ولا العدد.  
 (٥) في ب: وسلخوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم.  
 (٦) في ب: بل دخل.

